

تَطَوُّرُ الْفِكْرِ الْقَوْمِيِّ

بقلم الدكتور يوسف عزالدين

وأعني بالتيار القومي: التيار الذي يمثل الوعي العربي بأشكاله المختلفة ومظاهره المتنوعة، والذي عبر عن شعور الأمة العربية بكيانها وإحساس الشعب العربي بذاته وبحقه في حياة كريمة . وقد سمي هذا الإحساس بالوطني مرة والإحساس العربي تارة أخرى . ولهذا الشعور جذور عميقة في تاريخ الأمة العربية وفي النفس العربية مما يشهد بأن العربي لم يتخل يوماً عن الاعتزاز بقوميته وبمجاخته الملحة إلى كيان عربي موحد، لأن الشعور نفسه نابع من حس ذاتي داخلي وقد تأكد هذا الحس وبدا واضحاً عندما تعرض العرب للتحديات الخارجية التي أرادت الانتقاص منه .

وكانت بداية هذا الشعور مبهمه ، إذ لم تكن هناك مقومات حديثة تسنده وتوجهه ، بل كانت أهم ركائزه المبادئ الإسلامية وما فيها من دعوة إلى وحدة عربية أساسها ان العرب حملة الدين الإسلامي وقد شجعت معهم العدالة والمساواة والشورى أينما حلوا وأينما وصلوا ، فليس غريباً عليهم أن يتحدوا اليوم .

ولما سيطرت الدولة العثمانية على البلاد العربية ظل العرب ينظرون إليها نظرتهم السابقة إلى حكام المسلمين ولم يكونوا يفرقون بين العروبة والإسلام لانها كانا شيئاً واحداً متلازماً لا يمكن الفصل بينهما . وقد استند دعاة الإصلاح في أول أمرهم إلى الدين الإسلامي وحثوا على الاقتداء بالسلف الصالح واتباع سيرتهم . لان التخلف العربي كان نتيجة لابتعاد العرب عن الدين الإسلامي وأصوله السليمة .

وقد بقي هذا الوعي العربي متصلاً بالاسلام فترة من الزمن لأن العرب هم أهل الدين الاسلامي ولأن محمداً (ص) رسول الله الى الناس أجمعين ، عربي الأرومة ولأن القرآن الكريم دستور المسلمين عربي اللغة وتلك مقومات واسس ترضي الشعور الاسلامي والعربي للامة العربية. ثم ظهر وعي اتصل باللغة العربية ذاتها ورأى ضرورة نشرها وبعثها والتحدث بها واتخاذها أداة للمراسلات وكان من جراء هذا الوعي الدعوة الى إحياء التراث العربي والثقافة العربية والحضارة العربية في الكتب القديمة واعادة نشر كتب التاريخ العربي والادب في حين لم تكن الدوافع التي تدعو العرب الى المطالبة بالحكم العربي والانفصال عن جسم الانبراطورية العثمانية عميقة وقوية أو انذاك لأن العرب كانوا يخافون أشد الخوف من سيطرة اوربا (الكافرة) عليهم وهم لا يستبدلون بدولة مسلمة دولة غير مسلمة اكراماً للاسلام دينهم الذي يربطهم بالعثمانيين .

وبعد الثورة الفرنسية ووصول الحملة الفرنسية الى مصر بدأ هذا الوعي يأخذ اسلوباً آخر في اتجاهه إذ تبلورت فكرة الحكم العربي في نفوس قسم من العرب عندما أحسوا بالاذى من دولتهم المسلمة وبتأخرها وضعفها عن حماية العرب والاسلام عند ما تحداها نابليون وزحف الى الشرق .. وبقي قسم منهم يتمسك بها ويدافع عنها بعد زوال الحكم الفرنسي ثم بدأت تتضح هذه المفاهيم وتعمق في النفوس الرغبة في الوصول الى ما يكفل الاعتزاز بالقومية والفكر العربي القديم . وحاول الفكر العربي الحديث أن يواكب التيارات السياسية والفكرية الجديدة التي بدأت تصل الى عالمه ولم تتضح مفاهيمه السياسية الا عند ما قويت التحديات الخارجية وأخذت تظهر آثارها في جميع مناحي الحياة العامة .

وهنا بدأ الوعي العربي يراجع نفسه وفكر العرب من جديد في العلاقة بين الدولة العثمانية المسلمة وبين الامة العربية . واثارت حيرة في النفوس بين هذين الامرين وتساءل المفكرون عما تعنيه الامة ، أتعني الامة الاسلامية ام تعني الامة العربية ، وهل الامة بمعنى القوم ؟ .

أديب اسحق :

فقال أديب اسحق (والامة والحيل في كل حي من الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً) فيز اديب اسحق بين امتين الامة العربية وهى القوم والامة الاسلامية وهى عدة أقوام يجمعها دين واحد وقال (انما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاز الى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به) ولم يطلب لغة واحدة لهذه الامة لانه عاش في فترة الدولة العثمانية (١) .

الكواكبي :

اما الكواكبي فقد كان واضحاً أشد الوضوح في دعوته، قالها صريحة انه يريد خلافة عربية . فهل كان الكواكبي معبراً عن شعور الامة العربية أم انه تعرض في سورية لضغط أشد من ضغط أديب اسحق ، فان الحكم المباشر في سورية وشعور العرب فيها كان عند جماعة اكثر من جماعة اخرى والاعتماد على آراء الكواكبي وحدها غير كافٍ ولكنها تعطينا فكرة واضحة عن شعور جماعة من الامة العربية كانت ترغب رغبة صادقة في الخلافة العربية بعد أن هزتها المشاعر القومية ، وقد ساعد الكواكبي على فهم فكرة الخلافة العربية واعتناقها إطلاعه على الآراء الاوربية الجديدة ودراسته في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وعمله الصحفي.. وكما كان الانسان واسع الثقافة وذات تماس أكثر بالثقافات المختلفة كان أقرب الى الصواب في الرأي والعمق في الفكرة ولأن عمله كان يطلعه على احداث العالم وأنظمة الحكم فيه وما يدور في تلك الأنظمة فقد قارن الكواكبي بين نظام الحكم العثماني المفروض على وطنه وبين الحكم الشعبى الوطنى في الامم الاخرى فوجد الحكم العثماني غير صالح لأمته فضاق به ذرعاً . . لأنه أراد أن يكون لأمته من التقدم السياسى والاقتصادى والاجتماعى ما لاوربا . ولما لم يكن الكواكبي بقادر على تغيير حالة أمته فقد شن حرباً على الدولة العثمانية وعدد مساوئها وذكر مآثر العرب ومزاياهم وسجاياهم عند ما كانوا سادة العالم ودعا الى أن يسود العرب أنفسهم والى تكوين خلافة عربية تستند اليها الامة الاسلامية كما كان العرب ايام عزهم وحكمهم فقال (العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين ،

(١) الفكر العربى الحديث لرئيس الحورى بيروت ١٩٤٣ ص ٢١٦ .

وقوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً (١) .

وقد أحس الكواكبي أن في عنقه رسالة يجب أن يؤديها ومتى ما أحس الانسان بأنه رائد فكرة وصاحب رسالة فلن يتأخر عن تبليغ هذه الرسالة . كان يرى أبناء امته في تأخر وانحطاط ويرى امم الغرب تتقدم في الحياة لذلك صمم على بعث الهممة في النفوس وتجديد الطرق التي تسير عليها الامة العربية .. ويبدو ان كتاب العرب في هذه الفترة بصورة عامة لم تكن عندهم فكرة واضحة عن شمول الفكرة القومية واتساع آفاقها كما نفهمها اليوم عندما تطورت الفكرة واتسعت وأخذ العرب يطالبون بوحدة من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي بينما كان الكتاب الاوائل مثل جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب) يريدونها محصورة بالهلل الخصب وهي الاقطار العربية التي كانت تتبع الانبراطورية العثمانية ولم يتطرق الى شمالي افريقيا العربية (٢) ومثل هذا الامر واضح في كتاب (يقظة الامة العربية في آسيا العثمانية) الذي الفه نجيب غازوري ففيه مخطط لدولة عربية كبرى مستقلة تمتد من العراق الى السويس وتمنح ادارة خاصة الى لبنان (المنطقة المسيحية) والاماكن المقدسة في فلسطين وان يكون على رأس هذه الدولة ملك عربي مع تأسيس خلافة عربية على رأسها امير الحجاز (٣) اي ان هدف عصبة الوطن العربي تحرير الشام والعراق من سيطرة الترك وتكوين دولة عربية من القطرين على أسس حديثة (٤) .

ورأى الكواكبي ضرورة أن يكون حاكم العرب عربياً حتى يحصل الانسجام بين الحاكم والمحكوم بل رأى وجود غير العربي في الحكم خسراناً مبيناً فقال :

(أما عدم التطابق في الاخلاق بين الراعي والرعية فله شأن عظيم) وضرب أمثلة بالقواد الذين كانوا يقودون أبناء جنسهم فانتصروا لان جنودهم من أبناء قومهم قال :- (وهذا التطابق وحده يجعل الامة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم

(١) ام القرى ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ولاحظ ما كتبه عن عرب الجزيرة وصفاتهم ص ٢١٩ .

(٢) لاحظ يقظة العرب .

(٣) كان نجيب غازوري يتكلم باسم عصبة الوطن العربي وهو من مسيحي فلسطين ، وقد لخص لي فكرة المؤلف اللواء الركن عبد المطلب الامين مشكوراً .

(٤) الشهابي ص ٥٨ و ٥٩ .

نفسها بنفسها حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكيم المتنبي :
وانما الناس بالملوك ولا يفلح عرب ملوكها عجم^(١)

وتوضحت نظراته القومية حينما دعا الى ضرورة اتحاد كلمة العرب دون ان يعول على الدين
وضرب مثلاً في امريكا التي توحدت على اختلاف الأديان والقوميات فقال : (وأنتم ايها
العرب من غير المسلمين أدعوكم الى تناسي الاحقاد وأجلكم عن ألا تهتدوا الى وسائل
الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون ، فهذه أمم امريكا قد هداها العلم للاتحاد الوطني دون
الديني . فما بالناس لانفكر في ألا نتبع احدى تلك الطرائق فيقول علماءنا لمثيري
الشحناء من الأعاجم والاجانب بيننا دعونا ياهؤلاء ، نحن ندبر شأننا دعونا نجتمع على
كلمات سواء)^(٢) .

وقد أيد الشيخ محمد رشيد رضا آراء الكواكبي ونشرها فشحج على بث الفكرة القومية
وشجع على رسوخ القومية العربية في هذا القرن نمو هذه الروح في اوربا ولاسيا في ايطاليا
والمانيا اللتين كان انتصار القومية فيها سبباً في تفتح الذهن العربي ونمو وعيه الكامن .
وبذلك تبدل الفكر الاسلامي العربي وتطور فقد بدأ أولاً مطالباً باصلاح أحوال
المجتمع الاسلامي المتأخر وانتقاده من الفساد والخرافات التي تفشت فيه ثم اخذ يطالب بالتمتع
بالحقوق السياسية للعرب والمساهمة في الادارة المركزية مساهمة فعلية وانشاء ادارة لامركزية
في الولايات العربية وجعل اللغة العربية لغة التخاطب في مجلس الامة وان تؤدي الخدمة
العسكرية في البلاد العربية^(٣) .

ولكن تصرفات جمعية الاتحاد والترقي والحملات الطورانية التي قوبل بها العرب من اضطهاد
دعاهم الى المندادة بفصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية وأن يكون الحجاز مقراً لخلافة عربية
ويكون الشام والعراق دولة عربية تقوم على أسس حديثة لها^(٤) وأخيراً الدعوة الى وحدة
عربية^(٥) .. لأن الدولة العثمانية لم تكن تحرك ساكناً عند ما استولى الاوربيون على اجزاء

(١) ام القرى ص ١٦٨ ط ١٩٥٩ . حلب

(٢) طبائع الاستبداد الجذور التاريخية للقومية العربية للدكتور عبدالعزيز الدوري ص ٥٩ و ٦٠

بيروت ١٩٦٠ .

(٣) راجع مؤتمر الشهداء ص ١١٢ بصدد قرارات المؤتمر العربي الاول .

(٤) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها الامير مصطفى الشهابي القاهرة ١٩٦١ ص ٥٨ عن

كتاب يقظة العرب في آسيا العثمانية ط باريس ١٩٠٥ لنجيب غازوري .

(٥) البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري .

من الوطن العربي ثم أنهم استعمروا جزءاً كبيراً منه .
ومن الطريف أن يذكر الاستاذ ساطع الحصري بأن جمال الدين الافغاني - وهو من قادة
الدعوة الى الوحدة الاسلامية واصلاح الدين الاسلامي مما علق به من خرافات والذي أصدر
العروة الوثقى في سبيل بث هذه الآراء وتحمل في سبيل آرائه ما تحمل - ، أخذ يدعو الى
وحدة قومية تقوم على اللغة والجنس فقد استشهد بأحدى مقالاته التي كتبها باللغة الفارسية
والتي منها قوله :

(لأسعادة إلا بالجنسية (يعني القومية) ولا جنسية إلا باللغة .. ان الروابط التي تربط
جماعات كبيرة من الناس اثنتان وحدة اللغة ووحدة الدين .. وحدة اللغة ، هي الاساس الذي
تقوم عليه الجنسية .. اللغة أشد ثباتاً وأكثر دواماً من الدين) (١) .

الاسلام والعرب :

ورغم وجود بعض المفكرين الداعين الى القومية العربية فقد بقيت الدعوة القومية
تسير مع الدعوة الاسلامية إذ لم يكن هناك اختلاف بين الدعوتين ولأن العرب دائماً
يعتبرون الذي يتكلم العربية ومن يروم أن يكون عربياً فهو عربي وقد سن هذه السنة النبي
الكريم فقد ورد في تاريخ ابن عساكر أيها الناس ان الرب واحد والأب واحد ، ليست
العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي « (٢) وبذلك
جعل الجاحظ الموالي عرباً على اساس تعلمهم اللغة العربية والعادات العربية .

وقد انتشر هذا المفهوم عند العرب فكانوا يجعلون للمسلمين ما لهم وما عليهم واعتبروا
المسلمين عرباً وقد أكد الدكتور الدوري هذا المعنى الذي انتشر بعد الفتوح (٣)
وفي الطبري نص يؤكد هذا الامر إذ كتب هانيء بن هاني «ان الناس قد اسلموا وبنوا

(١) ما هي القومية الاستاذ ساطع الحصري ص ٢٠٧ بيروت ١٩٥٩ .

(٢) القومية العربية - الشهابي ص ٣٤

(٣) الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٤٤ و ٤٥ .

المساجد فجاء دهاقين بخاري الى اشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً ، ويريد بكلمة (العرب) المسلمين الجدد من الفرس (١) .

وقد بقيت الثقافة العربية هي الصفة المميزة لجميع البلاد الاسلامية وما كان غير العربي يرى في ذلك ضيراً لأن الاسلام سـاوى بينهم ولان الحضارة الاسلامية شملت البشر جميعاً على قاعدة « إن اكرمكم عند الله اتقاكم ولا فضل لعربي على اعجمي إلا بالتقوى » ولم يحدد غير العرب فضل العرب على العالم بل كان يعدد مزاياهم ومكارمهم وهذا دليل واضح على سمو الفكر العربي والحضارة الاسلامية وسمو المدنية العربية وانسانيتها وترك كل ما هو عربي واسلامى ، وبذلك كان رد الفعل العربي قوياً عميقاً ولا سيما بعد ان شنع جمال باشا خيرة الشباب العربي الذين عملوا معه (٢) .

الطورانية :

ولما انتشرت الدعوة الطورانية في البلاد العربية كان رد الفعل لها في البلاد العربية التأكيد على ضرورة وجود كيان عربي متميز لأن جمعية الاتحاد والترقي تبنت الدعوة الى اذابة العناصر غير التركية .

كانت جمعية تركيا الفتاة تضم جماعة من العرب الآملين بان ينالوا بعد فوزها قسماً (من حقوقهم السياسية وأن يحتفظوا في نطاق الدولة بقوميتهم وبلغتهم وان يعيشوا في بلادهم عيشاً كريماً ..) لكن الجمعية بدلاً من أن ترعى العرب أخذت (تدعو الى ضم شتات التتر والمغول في انبراطورية واحدة اما الدولة العثمانية فهي في نظرهم دولة تركية ليس غير) وعلى الشعوب الاخرى ان يصبحوا اتراكاً ودعا غلاتهم الى التنكر للاسلام ورفع اسماء

(١) الطبري حوادث سنة ١١٠ والجذور التاريخية ، ص ١٧ .

(٢) الجمعيات السرية في الاستانة مثل جمعية الاخاء العربي والمنتدى الادبي والجمعية الفصحائية في مصر الجمعية الثورية العربية اللامركزية انتقلت الى لبنان وسورية في بادئ العهد انتشرت في جميع مراكز النشاط في بيروت النهضة اللبنانية انتقلت الى جميع المهاجر في مصر واوروبا وامريكا لاحظ مؤتمر الشهداء ص ٩٤ .

الخلفاء الراشدين من المساجد وان تستبدل بها اسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك^(١) ومع ان هؤلاء كانوا قلة الا انهم كانوا هم المسيطرين فخرؤا البلاد الى اسوأ النتائج بسبب نظرهم الى العرب على أنهم امة محكومة من قبلهم فقد جاء في جريدة (اقدام) ان الاتراك لهم الحق في ان يحكموا العرب تماماً كما يحكم الفرنسيون اهل الجزائر وكما يحكم الانكليز الهند^(٢) .

وورد في كتاب الكاتب التركي الشهير جلال نوري (تاريخ المستقبل) ما نصه :
« ان المصلحة تقضي على حكومة الاستانة باكره السوريين على ترك بلادهم وان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها الى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب ان تكون لغة الدين »^(٣) .

ومع أن سياسة الاتحاديين هذه انتقدت من عقلائهم كالدكتور رضا توفيق الذي عدّ السكوت على سياستهم خيانة لا يغتفرها الوطن الا انهم استمروا في اعمالهم وملاحقتهم للعرب^(٤) . هذه الملاحقة أشعلت الوعي القومي الكامن في النفوس وأججت الشعور الوطني وبدا الشعور العربي يبرز جلياً وأخذت تتألف الجمعيات السرية والعلنية لمحاربة تيار التتريك ومن هذه الجمعيات (الجمعية العلمية السورية) تأسست عام ١٨٥٧^(٥) لاهياء التراث العربي وكان اعضاءها فيها من مختلف بلاد العرب وكان منهم ابراهيم اليازجي الذي دعا صراحة الى محاربة الظلم ورفع النير عن كاهل العرب وله في ذلك قصيدتان مشهورتان الاولى :

دع مجلس الغيب الاوانس وهوى لواحظها النواص

وفيهما يخاطب العرب ويحرضهم على الثورة والقتال :

(١) الشهابي ص ٦٣

(٢) مؤتمر الشهداء ص ٢٩ . (٣) مؤتمر الشهداء ص ٤١ ولاحظ ص ٤٢ و ٤٤ و ٤٥ و ٢٤

(٤) مؤتمر الشهداء ص ٣٠ . (٥) في شأن الجمعيات راجع الشهابي .

(*) بصدد المحاكم واسماء القتلى راجع مؤتمر الشهداء وغيرها من كتب التاريخ

اولستم العرب الكرام ومن هم الشم المميطس
فأستوقدوا لقتالهم ناراً تزوع كل قابس

اما القصيدة الثانية فهي اشهر من الاولى والتي يقول فيها :

تنهبوا واستفيقوا ايها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأتم بين راحات القنـا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

وقد ذكر الامير الشهابي عدة جمعيات وحلقات ادبية كانت غايتها الاساسية سياسية ومظهرها ادبياً^(١) ومن الواضح ان وجود الجمعيات والحلقات الادبية معناه ان الفكر العربي كان متمثلاً في الادب وقد كانت القيادة الفكرية والسياسية خير داع الى القومية العربية والوعي القومي .

العراق

اما في العراق فقد ظهرت بوادر الدعوة القومية عند ما أساء الموظفون الاتراك الى بعض الاسر ووجدنا آثارها تذهب الى القرن الثامن عشر عند ما حاول سليمان الشاوي شرح قصيدة الشنفرى لشجذ همم العرب^(٢) والحرص على ابقاء العنصر العربي طاهراً لا تشوبه شائبة اجنبية عن العناصر الاجنبية^(٣) ويعاتب من يجحد للعرب مكانتهم العالية^(٤) وظهرت الدعوة القومية بصور شتى منها الدعوة الى الاصلاح والثورة على الفساد والمطالبة

(١) من هذه الحلقات حلقة الشيخ طاهر الجزائري وحلقة دمشق وجمعية النهضة العربية .

(٢) سكب الادب وهي قصيدة الشنفرى شرحها سليمان الشاوي لاحظ عن الشعر العراقي في القرن

التاسع عشر .

(٣) الجمان المنضد في مدح الوزير احمد ص ١٤ و ١٥ لمحمد الغلامي وشرح رؤوف الفلاحي ط . الموصل

سنة ١٩٤٠ .

(٤) ديوان الطباطبائي ٢٠٦

بالحرية^(١) وقد ظهرت الدعوة واضحة عندما تبرم اهل العراق يسوء معاملة الاتراك لهم
فقد قال الشاعر :

والترك ان تدنو لهم يبعدوا يصيحوا في غلمانهم قاوسنه
بن الور ابنا عرب يوزبرن الله بلا ورسن وقد صنصنه
يالتنا متنا قبيل الأذى وقبل هذا الذل والمسكنه^(٢)

وقد وجدنا هذه الروح عند أكثر من شاعر في القرن التاسع عشر مثل عبدالغفار الاخرس
وعبدالغني الجميل وعبدالحمد الشاوي وعبد الباقي العمري ومحمود شكري الآلوسي وابي الشناء
الآلوسي والقزويني . وقد كانت هذه الدعوات تظهر تارة بالشكوى من الجور الذي حل
بالعراق وتارة باستغلال الحاكمين الشعب وطوراً بالدعوة الى تطبيق الشرع الاسلامي
الشريف وطوراً بالتحسر على ايام بغداد في عزها المجيد وكيف آل الأمر فيها الى حكم
لا يراعون ذمة فقال عبدالغني الجميل :

لهفي على بغداد من بلدة قد عشش العز بها ثم طار
كانت عروساً مثل شمس الضحى لمستعير حليها لا يعار
كانت بها للنفس ما تشتهي كجنة الخلد ، ودار القرار
كانت لآساد الوغى منزلاً والخائف الجاني بها يستجار
كانت يسيطون الاذى اهلها عن كل آت حيا مستطار
واليوم ، لا مأوى لذي فاقة فيها ولا في اهلها مستجار
واليوم قد حل بها من ترى فانقر والا بيدك الخيار
لم يرقبوا إلا ولا ذمة فينا ، ولا عذراً لذي اعتذار
حل بها قوم وهم في عمي ما ميزوا اشرارها والخيار

(١) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر لاحظ باب القومية .

(٢) شامة العنبر لمحمد مصطفى الفلاحي ١٠٣ .

واصبح القرد بها مقتدى
يلعب بالالباب لعب القمار^(١)
ثم قال صراحة :

لا يشتني غيظ اخي نخوة
الا اذا جرد بيض الشفار
وقد وجدت في شعر الشعراء ذكراً للجور وانه طغى وعم وان من ساد على العراقيين ليس
جديراً بالحكم والسيادة ويدعو ابن الجليل في شعره صراحة الى ثورة عربية اذ رأى الحاكمين
لا تميزهم عن العرب قوة او ميزة غير جبروتهم وعتوهم واعتدائهم على ابناء الوطن واهمال
شأنه فيقول :

متى يلثم اللبات رحمي وترتوي	سيوف باعناق اللثام صليلها
وحولي رجال من معد ويعرب	مصاليت للحرب العوان قبولها
اذا اوقدوا للحرب ناراً تأججت	مجامرها والبيض تدمى نصولها
وبالسمر تحمي البيض شبان حبيهم	وبالبيض تحمي السمر قسراً كهولها
يهشون للعافي اذا ضاق رحبهم	وجوه كأسياف يضى صقيلها

وتؤوب الحسرة في نفسه لوعة جارحة لان العرب لم يستجيبوا لندائه :

إلى الله اشكو عصبه قد تواطأت
على دخن بغياً فضلت عقولها^(٢)
والقزويني يقول :

وكم لملوك الترك هتك حرمة	لاهل النهى والهتك من شيم الترك
وماخلت حتى سرت في الفلك اني	ارى الفلك الا على يسير في الفلك ^(٣)

واماني احمد الشاوي الانتقام ممن لم يرعوا للاسلام ذمة :

الا ليت شعري والاماني ضلة
وعمر الفتى ان عاش ما عاش للهلك

(١) غرائب الاغتراب ص ٢١١ لابي التناء شهاب الدين الألويسي طبع بغداد ١٣٢٧ .

(٢) غرائب الاغتراب ص ٢١٨ - ٢٢٤ ودبوان الاخرس ص ٤٧١ .

(٣) دبوان القزويني ص ٢٢٠ و ٢٢١

لا أدرك للإسلام ثاراً من الشرك اخترمي ريب المنون ولم اكن
 واشفي واستشفي غليلي من الترك^(١) وأبرد من صهب العثانين غلتي
 وقال محمد الهاشمي :
 تركوك يالغة النبي وآثروا في المسلمين سياسة التتريك
 النبار القومي والاسلامي والشعر

وبقيت الفكرتان القومية والاسلامية تسيران متقاربتين تارة ومتباعدتين تارة اخرى لان
 الوحدة العربية ضرورة من ضرورات الوحدة الاسلامية ودعامة من دعوماتها القوية وليس من
 السهل على اديب تنقف بثقافة عربية اسلامية ان يفرق بين الوجدتين فالعربي من كانت لغته
 العربية سواء أ كان عربياً ام غير عربي فقد كان الرصافي داعياً من دعاة الوحدة العربية
 والاسلامية ولكنه دعا الى وحدة عربية بلا تمييز بين الطوائف فقال : من
 قصيدة له :

عدوا النصارى وعدوا المسلمين بها ونحن نعهدهم طراً اعاريبا
 أو في مصالح دنياهم وهم عرب جاءوا على حسب الاديان ترتيبا
 ما ضرهم لو نحوا في الامر جامعة تنفي الكنائس عنها والمحاربا^(٢)
 وقد كانت الاخلاق العربية مثلاً عالياً يحتذى في السمو والحمد بالخلال العربية
 اما وخالال فيكم عربية وذا قسم لو تعلمون مؤكداً^(٣)
 والمكارم العربية تتمثل في النبل والوفاء ومن يتخلى عن الخلال العربية السامية لا يعده
 الشاعر من العرب ويبرئ العرب من اية جماعة لا تتحلى بمثل هذه المكارم .
 برئت للعرب العرباء من فئة يُنمّون للعرب الا انهم سقط
 اين المكارم ان هم اصبحوا عربا فانها من طباع العرب تشتط^(٤)

(١) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ط ١ ص ١٨٦

(٢) ديوان الرصافي الطبعة السادسة القاهرة ١٩٥٩ ص ٤٠٢ و ٤٠٣

(٣) الديوان ص ٧٥ (٤) الديوان ص ٤٠٧

وجود الدين سواء الاسلامي او المسيحي لا يمنع من هذه الوحدة فقال :

اذا جمعنا وحدة وطنية	فماذا علينا ان تعدد اديان
اذا القوم عمتهم أمور ثلاثة	لسان واوطان وبالله ايمان
فاى اعتقاد مانع من اخوة	بما قال انجيل كما قال قرآن
نمتكم الى المجد الموئل تغلب	كما قد نمتكم للمكارم غسان
أجب ايها الندب المسيحي مسلماً	صفا لك منه اليوم سر واعلان
فلا تحزما الاوطان ان تتحالفا	يداً بيد حتى تؤكد أيمان
ألا فانهمضوا نحو العدا وكلا كما	لصاحبه في المأزق الضنك معوان
وقولا لمن قد لام من ويك اننا	على كل حال في المواطن اخوان ^(١)

وقال :

تكلمت سور القرآن مفصحة	فأسكتت صخب الارماح والقضب
وقام خير قريش وابن سادتها	يدعو الى الله في عزم ومن دأب
بمنطق هاشمي الوشي لونسجت	منه الأصائل لم تنصل ولم تغب ^(٢)

وفي شعر الرصافي الكثير من هذه الآراء ومن يراجع الديوان يجد ذلك واضحاً وقد كان يرى الوحدة سبباً في قوة العرب وبغيرها لن يكون تقدم ولا حضارة كقوله :

قد انهضتهم الى العليا وحدتهم	واليوم اقدمهم عنها اذ انقسموا ^(٣)
والاجارم شعر كثير اشاد فيه بالرابطة الاسلامية والعربية فقال :	
لي بينكم صلة عزت او اصراها	لانها صلة القرآن والنسب ^(٤)

(١) الديوان ص ١٣١

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٣) يلاحظ في الديوان الى الشبان ص ٦٥ وبقطة الشرق ٢٦٥ والى الامة العربية

٢٩٤ وصبح الاماني ٤١٥ وبعد الزوج ٤٢٦ ونحن والحالة العالمية ٤٧٤ ورؤيا صادقة ٤٩٢

وقصر الحمراء ٥٠٠ و

(٤) ديوان الجارم طبعة دار المعارف القاهرة ص ٦٠ ج ٣

ويناجي بغداد والعراق بقوله :

حبيب الى نفسي العراق واهله وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
ديار بها الاسلام ارسل ضوءه فسار مسير الشمس في الافق سائره
ومدت به الآداب ظلا على الوري تساوت به آصاله وهو اجره^(١)
بل يجعل الاسلام فوق كل اعتبار عند ما يقول :

فليس لدى الاسلام شرق ومشرق وليس لدى الاسلام غرب ومغرب
هم الناس اخوان سواء على الهدى بطيء المساعي والشريف المهيب
فما حظ من قدر (الفراري) فاقة ولا زاد في قدر ابن (ايهم) منصب
يجمعهم قلب، على الحق ، واحد وان فرقت اوطانهم وتشعبوا
اذا صاح في (جيحون) يوماً مؤذن اجاب على (التاميز) داع مثوب
وإن ذرفت من جفن (دجلة) دمة رأيت دموع (النيل) حيرى تصيب
وان مس جرح من (فلسطين) اصبعاً شكا (حاجر) منه وأن (المحصب)^(٢)

واكثر شعراء مصر حافظوا على الوحدة الاسلامية والقومية في شعرهم ومن هؤلاء
احمد محرم ومحمد عبد المطلب وشوقي وحافظ وخليل مطران^(٣) . مع انهم كانوا أميل الى
الاسلام بل كانوا أولاً ضد الحركة القومية العربية لأنها كانت خروجاً على الخلافة الاسلامية .

المسيحيون والاسلام :

وقد ساءم اخواننا المسيحيون مساهمة واضحة في القومية العربية فقد جعلوا النبي محمد
زعيماً عربياً وحد شملهم فقد قال جورج سلسي لما رأى ما حاق بالعرب من ذل وتفرقة .
يا سيدي يا رسول الله روعنا صرف الزمان بشر منه مسعور

(١) القى القصيدة في رثاء الزهاوي في ١٢ شباط سنة ١٩٣٧ لاحظ ديوان الجارم ج ٢ ص ١١٤

(٢) ديوان الجارم ج ٤ ص ٣

(٣) لاحظ (التراث الروحي والشعر الحديث) والقومية العربية في الشعر للدكتور الحوفي .

وامتد بالعرب ليل النائبات أما
فاشفع فانك ادنى المرسلين الى الب
للفجر بعد الدياجي من تبشير ؟
اري فنسلم من ذل وتعير^(١)
والطريف ان يقول وصفي قرنقلي من قصيدة :

قد يقولون شاعر نصراني يرسل الحب في كذاب البيان
كذبوا - والرسول - لم يجز يوماً بخلاف الذي أكنّ لساني
أو عار على فتى يعربي يتغنى بالسيد العبداني
أفكنا لولا الرسول سوى العُبد - دان بنُست معيشة العبدان
او ليس الوفاء ان تخلصَ المذ - قد حباً ان كنت ذا وجدان^(٢) ؟

ورأى المسيحيون ان مجد الاسلام هو مجدهم فتجد مطران ورشيد سليم الخوري
والياس فرحات وعادل الغضبان^(٣) كلهم لسان شعر جميل فقد قال رشيد سليم الخوري
أتجف اوراق العروبة في رُبّا لبنان وهي نضيرة في (يذبل)
اتريد اعظم من ابي بكر ومن عمر اذا انتسب الكرام ومن علي^(٤) ؟
وقال :

هبوني ديناً يجعل العرب أمة وسيروا بجثاني على دين برهم

الاجمعي والقومية :

والواقع ان الاستعمار يقف امام اتحاد الامم دائماً وخاصة الامم القوية الجانب وهو
الذي يفرق الصفوف ويبث الأحن والعداوات بين ابناء الامة الواحدة وفي الجفاء الذي
نشأ بين الاقباط والمسلمين في مصر سنة ١٩٠٨ وقبلها ما حصل في سورية (لبنان) ١٨٦٠
وفي الخصومات التي حدثت بين ابناء العرب وبين المسلمين انفسهم خير دليل على هذا القول
وقد كان الشعراء والادباء خاصة يقفون امام هذه الحركات محاولين جهدهم ان يحل التصافي
بين ابناء الوطن الواحد وما تزال هذه الحزازات تجمد طريقها الى النفوس فقد قال عوض
واصف :

(١) القومية العربية في الشعر الحديث للدكتور احمد محمد الحوفي ط القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ٣٤٣

(٢) المصدر السابق . (٣) راجع مهرجان الشعر الخامس ص ٧٣

(٤) الحوفي: القومية العربية ص ٣٤٩ وادبنا وادباؤنا في المهجر ص ٣٧٩

ابناؤها عبد المسيح واحمد
لا فرق بين العالمين واراضيهم
هل في السماء مذاهب وعناصر؟
والموسوي وليس ثم دخيل
وطن وحيد والجميع سليل
هل ثم الا صاحب و خليل؟^(١)
وقال بولس سلامة :

وبطل مئذنة وباحة مسجد
نهج البلاغة نهجنا وعليه
وقال الاديب مارون عبود وقد سمي ابنه محمداً اعتزازاً باسم النبي محمد (ص) :
عشت يا بني عشت يا خير صبي
امه ما ولدته مسلماً
فالعلم في لبنان شدّ ولاء
ملك البيان وسدره الادباء^(٢)
ولدت له امه في رجب
او مسيحياً ولكن عربي
الزهاوي :

وقد جعل الزهاوي للفكر اهمية كبيرة في تقريب العرب لان الفكر أقرب قرابة
واشد رابطة من الوحدة العربية السياسية فقد قال في قصيدة (العراق في مصر) التي نظمها متأخراً:

لقد جمعنا وحدة عربية
ارى في لقاء الروح للروح فرحة
واقرب منها بيننا وحدة الفكر
تفرق لقاء العين والالوجه الغر^(٣)

وقد حذر الزهاوي العرب من الاستعمار الذي يقف للوحدة العربية بالمرصاد كما حذرهم
من غير المخلصين الذين يتخذون من الدعوة الى الوحدة العربية سبيلاً لاغراضهم ومآربهم
ولم يجد الوحدة العربية صعبة المنال اذا صدقت النيات وفكر في صيانتها المفكرون فقال
في قصيدة يرحب فيها بالمازني واسعد داغر :

ما كان من هتفوا لتو
هي وحدة ميسورة
حيد العروبة لاعبينا
لولا يد العابثينا

(١) التراث الروحي والشعر الحديث ص ١٤ القاهرة ١٩٦٦

(٢) القومية العربية والشعر الحديث ص ٣١

(٣) المثالة ص ٦٤

ان العروبة ليس تأ من غارة للمستعمرينا
 الا بوحدها ونع سم وسيلة المتفكرينا
 وهى التي اتحدت قد . . يمايينها لغة ودينا (١)
 وبذلك تأثر الزهاوي في القصيدتين بالتيار القومي العربي واخذ يدعو اليه
 الكاظمي :

وقد كان الكاظمي يمثل الدعوة العربية تمثيلاً واضحاً فهو عراقي سكن القاهرة وكان أمراء
 العرب يؤازرونه في دعوته حتى انه اعتبر ممثلاً للدعوة العربية التي جند لها نفسه واخلص لها
 كل الاخلاص فعالج مشكلات العرب معالجة عاطفية الى جانب معالجته المنطقية ، مغتنماً
 كل فرصة ممكنة للدعوة لها فقد قال في قصيدة نظمها بعد عودة سعد زغلول من
 المنفى يصف حالة العرب وما يصبه عليهم المستعمرون في مصر ودهش وبعثاد والقدس من
 ويلات ويؤكد ان هذا الامر نتيجة لتفريق العرب ولو انهم اتحدوا لما تجرأ المستعمر
 على هذا فقال :

وما بك يا مصر ببغداد نازل وفي جلق ادهى وفي القدس اجسم
 هنالك احشاء تذوب وهنا قلوب متى حركتها تتضرم
 اذا ما توالى جرحنا وتعددت مراهمه فالجرح للجرح مرهم
 ستجمعنا الايام والخير ضاحك يعم الورى والشر يبكي ويلطم (٢)

ولعل الكاظمي من اول الداعين واكثر الناضمين في الوحدة العربية بعد الرواد
 الاوائل فشعره في الوحدة العربية كثير وهو على كثرتة وانتشاره اتخذ لساناً للشورة
 العربية في الحجاز وكانت له صلاته الخاصة بالاسرة الهاشمية التي كانت حريصة اشد الحرص
 على الوحدة العربية . وقد كان الكاظمي (٣) يحس احساس القائد المفكر الذي يريد ان
 ينهض قومه العرب فقال :

(١) التالة ص ٦٨ (٢) الديوان ج ١ ص ٢٦٠ .

(٣) وقام السيد عبد الرحيم محمد علي بجمع ما كتب عن الكاظمي باربعة كتب هي : الكاظمي شاعر
 العرب وذكري شاعر العرب والكاظمي شاعر الكفاح العربي الخالد والكاظمي في ذكراه الثلاثين .

ردد الشجو فالمصائب اذكت جانحات وقرحت آماقا
 تلك سورية التي سيروها اغلقوا النهج دونها اغلاقا
 حملوها ما لا تطيق وقالوا ان حمل الاذلال كاتب مطاقا^(١)
 وتراه وكله عواطف صادقة واحاسيس كريمة لكل شبر من بلاده لا فرق بينها في الاسماء
 فهي امة واحدة ووطن واحد وقال :

احن اذا قيل العراق وانحني واشفق ان قيل الشام وازفر
 واطرق ان قيل الحجاز على جوى واعجب إما قيل مصر وأبهر
 جميع بلاد العرب في القدر واحد اذا وازنوا البلدان يوماً وقدروا^(٢)
 وسمى احمد محرم العرب في شعره « أمم العروبة » لتفرقهم ، وقال إنه يجب ان تتوحد
 هذه « الامم » لتحمي حوزتها وتذود عن حماها وذلك في قوله :

امم العروبة لا نجاة لمدير يعني النجاة ولا حياة لمحجم
 كوني جميعاً فالتفرق لم يزل مذ كان من نُذِر القضاء المبرم
 ضمتي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي^(٣)
 ولا نكاد نجد شاعراً عربياً او مسلماً لم يدع الى وحدة العرب في مختلف اقطارهم في الشام
 وفلسطين ومصر والعراق ولكننا نرى الدعوة في العراق اكثر ظهوراً واشد حماسة ،
 ووضح قصداً واعمق عاطفة من الاقطار العربية . ذلك لان عرب العراق كانوا اكثر
 احتكاكاً بالتيارات الطورانية وغيرها .. التي تريد ان تحول العراق عن ركه العربي
 ومحو الشخصية العربية وقتل كل شعور عربي قومي في الماضي البعيد والقريب يضاف
 الى ذلك ان هناك ثقافات قديمة لها رواسبها المتعجزة العريقة .

والعراق موطن هجرة العرب طوال العصور والجزيرة هي التي تغذيه فيأتي العربي
 وقد امتلأ رغبة في الاستقلال والحرية فيجد امامه اجنبياً يريد اذلاله ، وحضارات

(١) ديوان الكاظمي ج ٢ ص ١٥٣ (٢) ديوان الكاظمي ج ١ ص ٢٥١

(٣) الحوفي : القومية العربية ص ١٢٤

تريد ان تقيده وتفقد ذاته وليس من السهولة على العربي ان يفقد ذاته واستقلاله فيكون الثبات ويكون الصراع مريراً فيعمق الشعور القومي ويزداد العربي تمسكاً بتقاليده وإيماناً بذاتيته العربية لان قوته الفردية ومقوماته الحضارية وتراثه الثقافي تبقى عربية رغم احساسه الاسلامي. فوقف امام كل تحديات الاجنبي وقد عللها الدكتور الدوري فقال: « كان العراق منذ القدم الحد الشرقي للثقافة السامية تجاه ثقافة اخرى قوية هي الآرية ثم صار الحد الشرقي للثقافة العربية حفيذة الثقافة السامية وورثتها تجاه الاعجمية فهو لذلك ساحة صراع سياسي ثقافي اجتماعي بين السامية وبين الآرية في القديم وبين العروبة والاعجمية بعد ظهور العرب على المسرح »^(١)

والعراقيون يؤلمهم ما يحيق باخوانهم العرب في كل مكان سواء أكانوا بدمشق ام القاهرة ام غيرها وقد قال الشيبني :

ماذا بنا وبذي الديار يُرادُ ؟ فُقدتْ دمشق وقبلها بغداد
بردى واودية الفرات ودجلة والنيـل غص بمائك الورد
ويرى الشيبني ان الاجانب هم سبب نكبة العرب وهم اساس بليته فقال :

حال العلوجُ من الاحامر بيننا وتعدّر الإصدار والإيرادُ
لاساغ - يا بردى - الشراب ولاهنا عذب من الماء القراح يراد

ويقف بحسرة والم عند ما يرى رجالا العرب تتناحر في سبيل احقادها الشخصية وفي سبيل المصالح الفردية تدفعهم الاضغان والاحقاد فقال :

ما بين مصر والحجاز تطاحن ومن العراق الى الخليج جـلاد
يتزودون من التجلد كلما قل المتاع ، وخفت الازواد
ويقول :

يا للرزية كم تفرق بيننا وتضلنا الاضغان والاحقاد^(٢)

(١) الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٣٧ . (٢) ديوان الشيبني ص ٣٣-٣٨

رجال الدين :

وقد عارض قسم من رجال الدين (الفكرة القومية) عند ظهورها لاعتقادهم بمخالفتها للدين الاسلامي ولانها تفصل العرب عن المسلمين ورأوا ان طاعة اوامر الخليفة واجب على المسلمين وقد أيدتهم الدولة العثمانية تأييداً مطلقاً ولما طالب العرب بحقوقهم باعتبار اللغة العربية لغة رسمية في بلادهم حركت الحكومة أنصارها من رجال الدين فشنوا حملة شعواء وكتبوا العرائض وجاءت وفود تؤكد الولاء للسدة العثمانية والخلافة الاسلامية ، واتخذوا من احاديث الرسول التي تمنع العصبية سبيلاً للرد على دعاة العروبة ولم يسكت دعاة القومية على هؤلاء وردوا بان العصبية هي العصبية الجاهلية .. (١)

وما كان يجرؤ باديء الامر القادة بالدعوة الى القومية والدعوة الى حكم عربي اذ كان الشعور العام ضد الدعوة اليها وعندما ثار عرابي على الانكليز نفى انه يريد تأسيس دولة عربية وعدّ هذا الامر خروجاً على طاعة الله ورسوله .

والفكر العربي ما زال مضطرباً في كثير من الاقطار العربية وما زالت القومية العربية تعيش في قلق في اذهان العرب لان الفكر العربي بحاجة شديدة الى وضع اساس علمية عامة تبعد عن اذهان قادة الرأي والسياسة القيم والاحلام البعيدة عن واقع الحياة العربية .

ولا يمكن للفكر العربي القومي ان تعمق جذوره الا بدراسة جديدة له وشرح قواعده وجذوره ومفاهيمه والا اصيب بخيبة امل اخرى خاصة لأولئك الذين يرون في الدعوة القومية خطراً على تيار الفكر الاسلامي (٢)

يوسف عز الدين

(١) ماهي القومية لساطع الحصري

(٢) وقد كان الفرنسيون يروجون ان القومية العربية فكرة اسلامية القصد منها ان يتسلط

المسلمون على المسيحيين لاحظ الوحدة العربية ٣٤٢ محمد عزة دروزة .